المحاضرتين الخامسة والسادسة تشكل النوع القصصي للسيرة الشعبية وبنيتها

تشكل السير الشعبية:

لم تشر المصادر العربية الأدبية والتاريخية إلى السير الشعبية إلا إشارات مقتضبة في سياق ذمها، مما أحاطها بكثير من الغموض وأخر أمر تدوينها.

من الذين اهتموا بتدوينها بعض منشدي السير الشعبية أنفسهم لحاجتهم الماسة إليها برغم حفظهم لها في الصدور حتى صارت في ميراث عائلاتهم يتناقلونها جيلا عن جيل، علما أن الكثير من نصوصها قد ضاع بوفاة رواتها[1] أما الجذور الشفهية للسير الشعبية فقديمة.

وأما أسباب ظهورها فلا بد من ربطها بتأويل متونها الضخمة لأنها تستدعي أشهر فرسان العرب ليكونوا أبطالا لعصور غير عصورهم، وقد عللها البعض بأنها نوع من استحضار الماضي المجيد لمواجهة انحسار الدور العربي الراهن، وقد أرجع أندريه ميكال استعادة هذا النوع والتغني به إلى "تعلق الجماعة الإسلامية بذكرياتها"[2]. بينما أرجعها عبد الحميد يونس إلى "اهتزاز الوجدان العربي" بسبب الحروب الصليبية واعتصام الناس بعصر البطولات هروبا من الواقع أو رغبة في إحياء الأمجاد وإعادته. وهناك من أرجع الأسباب إلى عوامل أدبية بحتة أمثال فاروق خورشيد الذي عزاها لحاجة الأمة إلى شكل أدبي عربي إسلامي بعيد عن المصادر الوثنية. بينما يرجعها عادل البياتي إلى الجذور الأولى التي أوجدتها أيام العرب وما تضمنته من أخبار كثيرة ومتنوعة.

ويؤكد أحمد كمال زكي أن السير الشعبية كانت تتخلق في خط مواز للمغازي وتستقطب كل ما رفضه اللغويون والمؤرخون من أخبار وأيام وتواريخ وأنساب ونوادر وكل ما ترسب في الذاكرة الشعبية لعامة الناس. ومما لا شك فيه أن هذه السير الشعبية الشفهية كانت تتغير من جيل إلى جيل لتغير رواتها وظروفها[3].وهي نصوص تاريخية في المقام الأول تستخلص مادتها من التاريخ والأدب القديم الذي كثيرا ما أرخ للحياة العربية بطريقته الخاصة، ومن حياة القبائل العربية من مصادرها التاريخية ومن الموروث الشعبي، فمن العصر الجاهلي نجد سيرة عنترة بن شداد، ومن تاريخ اليمن نذكر سيرة سيف بن ذي يزن، وسيرة الزير سالم، ومن تاريخ القبائل العربية بعد الإسلام نجدسيرة بني هلال وتغريبة بني هلال، ومن التاريخ المتأخر نجد سيرة الظاهر بيبرس... وما يجب توكيده أن هذه السير الشعبية لم ترو لمجرد التسلية بل لأهداف اجتماعية ونفسية وسياسية وأدبية.

القواعد العامة للسير الشعبية: لكتابة السيرة قواعد فنية مشتركة تكاد تتقاطع فيها جميع السير التي وصلت إلينا، أهمها:

1- هي من حيث الشكل قصة متكاملة لها بداية وصلب موضوع ونهاية، وفيها شخصيات وحبكة... مع غلبة الطول الذي يقربها من الملاحم، وطغيان الصور البيانية التقليدية من تشبيهات وكنايات وكل أشكال البديع خاصة الأسجاع...

2- يقوم بناؤها على التدرج ونمو الأحداث وتطورها بصورة طبيعية.

3- المزج بين الشخصيات التاريخي الحقيقية والشخصيات المتخيلة إذ هي نتاج خيال جمعي وتراكمات عبر العصور.

4- اعتنت السير الشعبية بالأمكنة وتحديداتها ولكنها لم تلتزم الدقة في تعاملها مع الأزمنة.

5- من أهم مميزاتها التداول الشفوي المتوارث جيلا عن جيل.

6- لغة السير الشعبية نثرية سهلة ومسجوعة غالبا إذ يساعد السجع على تنغيمها وحفظها وسهولة تقسيم مقاطعها، تجمع بين الفصحى وعاميات البلاد العربية.

7- يستخدم فيها الشعر للاستدلال والاستشهاد وتفعيل الصراع كلاميا قبل نشوب المعارك الحقيقية، كما يستخدمه الأبطال للتعبير عن انفعالاتهم وبيان مواقفهم.

8- قيام السير على أساس خلقي إسلامي، فهي تعكس صورا مشرفة للخلق العربي والمثل والقيم العليا الإسلامية، سواء في تصرفات الشخصيات أو سير الأحداث.

9- للسير أهدافها فهي ليست نصوصا عبثية أو إبداعية لمجرد المتعة الفنية، منها السياسية والإجتماعية والدينية...

10- ربط أبطال السير الشعبية بالناس وبالقضايا المركزية، وقد يتحول البطل إلى رمز.

11- إن بطل السيرة صاحب رسالة هي دائما رسالة الحق، فهو يصارع الشر دائما تحالفه كل القوى البشرية والغيبية، وينتصر عليه في النهاية دائما.

12- بطل السيرة ليس غريبا عن البيئة العربية، وهو غالبا من الأشراف ينحدر من نسل شريف قد يمتد حتى إلى الأنبياء دلالة على عراقته وعربته وصحة نسبه، وفي حالة البطل غير العربي تحضر في السيرة شخصيات عربية تلعب دورا بارزا مثل شخصية معروف بن حجر في سيرة الظاهر بيبرس.

13- اعتماد السير على الطابع البطولي وروح المغامرة والخوارق والعجائبية.

14- للمرأة مكانتها في السيرة وقيمتها واحترامها، ومن تخالف قيم المجتمع منهن تعامل بصرامة وحزم مثل ما حدث مع والدة سيف بن ذي يزن.

السمات الفنية للسيرة الشعبية:

تتقاطع جل السير الشعبية التي وصلتنا في مجموعة من الخصائص نجملها في النقاط الآتية:

1-الإطناب: ففي كل سيرة تتداخل الخطابات المختلفة وتتزاحم الكثير من الأنواع السردية، فالمطلع على أية سيرة شعبية يجد فيها الحكايات والأخبار والخرافات والنوادر والرحلات والغزوات والحروب والقضايا الاجتماعية...ومن تبعات هذا الإطناب الحكائي الخاص بسرد الحوادث اتساع نصوص السير الشعبية وامتدادها مكانيا، فمثلا تمتد السيرة الهلالية من العراق شرقا إلى المغرب غربا، ومن سوريا شمالا إلى جنوب الجزيرة العربية والسودان جنوبا، وتمتد بعض حوادثها إلى عمق إفريقيا كغرب نيجيريا وقلب بحيرة تشاد[4]

ويكفي دلالة على هذا الطول المفرط المسرد الذي أعده سعيد يقطين عن طبعات هذه السير وعدد الصفحات والمجلدات لأهم الرحلات. فمثلا سيرة ذات الهمة تقع في سبع مجلدات ب5962 صفحة، وتقع سيرة عنترة بن شداد في ثمان مجلدات ب

3624 صفحة ، وتقع سيرة الظاهر بيبرس في خمس مجلدات ب 2600 صفحة، وتقع السيرة الهلالية في ثلاثة أجزاء ب 1352 صفحة، وتقع سيرةفيروزشاه في أربعة أجزاء ب1248 صفحة...محصيا مساحتها جميعا ب 39 مجلدا و 32618 صفحة، وهو كم ضخم جدا.

2- التكرار والتداخل: نظرا لهذا الامتداد البارز في السير الشعبية لم تخل هذه المدونات من تكرار المشاهد والحوادث والصور، فلا يفرق بين كثير منها إلا ذكر الأسماء والأماكن...

3- إضفاء الطابع الأسطوري على شخصيات السيرة خاصة الأبطال منهم.

4- الإنشاد.

إنشاد السير الشعبية:

لإنشاد السير الشعبية تقاليد شبه ثابتة، فهي تكون عادة في المساء حيث الفراغ من متاعب اليوم والركون إلى الراحة، يقوم المنشد بقراءة جزء من السيرة في مكان ما، وقد ترافق القراءة الموقعة المؤثرة مقاطع موسيقية على بعض الآلات التقليدية (مثل الربابة أو الجوزة)، لا يلتزم الراوي المبدع حرفيا بالمدونة، فيتصرف بما يرويه تبعا لأحوال الجمهور المتلقين والانفعالات التي يثيرها فيهم سرده.

كما يستعين الراوي ببعض المقاطع التمثيلية مع بعض أصدقائه وبعض قطع السلاح، فيتحول السياق من السماع إلى المشاهدة والسماع في آن، وكأننا أمام مشهد تمثيلي[5].

نظرا لطول متون هذه السير كان الإنشاد يستمر أياما بل أشهرا (كل مساء) وكان المنشدون يتخصصون برواية سير معينة ينسبون إليها وتعرف بهم ،ما أوصاف الأبطال فنمطية كالعناترة والهلالية والظاهرية والبوزيدية... ففي مصر مثلا كانت هناك نقابة للمنشدين يرأسها شيخ، وكانت مهنة الإنشاد وراثية تعتمد على المشافهة وتتوارثها الأسر. أما أوصاف الأبطال فنمطية تضاف إلى أي بطل، وكذلك صورة الجو، مع تأثير الجمهور وتفاعله في الطول والتكرار... فالراوي يحفظ الأساس ثم يبني عليه بناء جديدا من وصفه وحسه. وهناك رواة يحفظون متن السيرة عن ظهر قلب ويلتزمون بحرفية النص المروي دون زيادة أو تحويرويسمى هذا النوع من الرواة الراوي الأصيل[6].

البنية السردية للسيرة الشعبية: تتشابك عناصر السيرة الشعبية وتتداخل بناها مع سرود أخرى قريبة منها، أهم مكوناتها الراوي والمروي والمروي له.

1- الرواة ووظائفهم: يرتبط المروي السيري بالراوي ، وعنه يصدر إلى المروي له، وعادة ما يعيد هذا الأخير إنتاج مروي إلى متلقين ربما تلقوه من راو آخر قبله، لا يختلف راوي السيرة الشعبية عن رواة باقي السرود الشفاهية، والرواة نوعان: راو متماه بمرويه لا يتدخل فيه، وآخر مفارق لمرويه يتدخل دائما فيما يرويه ولكل منهما وظائفه.

- وظائف الراوي المفارق لمرويه[7]:

– الوظيفة الاعتبارية: وذلك بإضفاء صفات اعتبارية عالية الشأن على أبطال السيرة وأفعالهم كقول الراوي: "هذه قصة الأمير سيف بن ذي يزن مبيد الكفرة أهل الشرك والمحن في سائر الأمصار..."

– الوظيفة التمجيدية: بإضفاء كل ما يمجد السيرة ويرتفع بأبطالها ويثير حماس المتلقين، وترديد ألفاظ العجب (مثل العجيبة/ ما أعجبه/ ما أغربه/ لا سمع في الخبر/ غاية العجب/ ...)

– الوظيفة البنائية:ومنها تنسيق المرويات وتلاحمها ووظيفة الاستباق بالإعلان عما سيقع، وتؤدي الأحلام دورا مهما في تحقيق الاستباق في السيرة الشعبية.

– الوظيفة الإبلاغية: يقوم الراوي المفارق نقل مرويه بوصفه شاهدا على الوقائع.

– الوظيفة التأويلية: وتكون بالعمل على إيجاد روابط بين المروي والبيئة الثقافية للمرجع.

– وظائف الراوي المتماهي مع مرويه:

– الوظيفة الوصفية : بتقديم مشاهد وصفية للمنازلات وأعمال الفروسية دون أن يعلن حضوره، وكأن المتلقي يرى مشهد ا حقيقيا لا وجود للراوي فيه ولا حضور جسدي له.

– الوظيفة التوثيقية: يقوم الراوي بتوثيق بعض مروياته، بربطها بمصادر تاريخية لإيهام المتلقي بأنه يروي تاريخا موثقا، والتأكيد على انتماء هذه السير إلى رواة مشهورين كالأصمعي وأبي عبيدة ووهب بن منبه وجهينة اليمني...

– الوظيفة التأصيلية: وذلك بتأصيل مروياته في التاريخ والثقافة العربية كمعارك الفتوح الإسلامية والحروب الصليبية...

2– بنية الوحدات الحكائية: لأن السيرة الشعبية نص سردي مكتمل أشبه بالقصة، له بداية وصلب موضوع ونهاية أو خاتمة، ولأنها نص استعراضي فقد عمد الرواة إلى تقسيمها إلى وحدات حكائية تجسد كل وحدة منها حدثا.

والوحدة الحكائية عادة هي سلسلة الأفعال المتعاقبة التي يقوم بها بطل السيرة لإشباع حاجة ما مادية أو معنوية، وهي تتطلب ارتحالا إلى مكان الخصوم ومواجهتهم والعودة ظافرا. عادة ما تكون الوحد الحكائية محكومة بمنطق صارم يوجه بناءها ابتداء من ظهور الحافز ووصولا إلى إشباع الحاجة التي ينتدب البطل نفسه لها، ويمثل الإنجاز الذي يقوم به البطل لب الوحدة الحكائية ومحورها الدلالي الذي يوجه مكوناتها، ولتحقيق ذلك الهدف يستعين البطل وخصمه بفئة من المساعدين[8].

3– بنية الشخصية في السيرة الشعبية (شخصية البطل):

عادة ما يتم التركيز على شخصيات الأبطال بحيث تعرف شخصية البطل في السير الشعبية تواترا في مجموعة من الثوابت نجملها في النقاط الآتية:

– النبوءة:لا تخلو سيرة شعبية من نبوءات وتوقعات تهيء لظهور البطل قبل ولادته وتلمح إلى ما سيقوم به من أعمال بطولية.

– الأصول النبيلة حيث تتهيأ لبطل السيرة أصول نبيلة قبل ولادته وإن لم يعترف بها إلا لاحقا وبعد لأي وجهد، تمتد بعض هذه الأصول إلى الأنبياء عليهم السلام، كما تؤكد فيهم عنصر العروبة.

– كثيرا ما يواجه أبطال السيرة معضلة الولادة الغريبة ومعضلة عدم تبني الأب الحقيقي .

– الغربة: يعيش بطل السيرة غربة عن مكان الولادة وعن الأهل (غربة مكانية وغربة نفسية)، فالبطل يبحث عن نسبه وعن موطنه، والواة يهيئون ظروفا غير طبيعية لولادة الأبطال وإبعادهم عن الأهل والوطن،.

– الاختبار: يعترض سبيل الأبطال اختبارات في كل مراحل حياتهم يتجاوزونها الواحد تلو الآخر من الاميلاد حتى الموت، فمثلا عنترة بن شداد تجاوز مثل اختبار عنترة مع الكلاب ومع الذئبة ومع العبد ومثل الأميرة التي تربى عند طي وهي من كلاب فتحارب مع طيء قومها وتبارز أباها فتأسره[9].

– الإعتراف بالبطل: بعد تجاوز الاختبارات يتم الاعتراف بالبطل وإلحاقه بأبيه وقومه.

– التكليف: بعد الاعتراف به بطلا يكلف بالمهمات الصعبة فارسا وحاميا لحمى قومه ومدافعا عنهم.

– المعارضة والعراقيل: ظهور شخصيات تحاول عرقلة البطل في مهامه البطولية بشتى الأساليب والوسائل .

– التكليف الديني والقومي: بعد النجاح في تخطي العراقيل يصبح البطل شخصية قومية ودينية.

– المعارشة العامة: بسبب المركز الجديد تظهر فئة من الخصوم الكبرى ترمي إلى القضاء على البطل بشتى الوسائل، خاصة من الممالك المجاورة وفرسانها وأ بطالها.

– المعاضدة: يستعين البطل بفئة من المساعدين (فرسان/ عيارون/ شطار/ الحكماء...)

– الخوارق والسحر: إلى جانب القوة الحقيقية يستعين البطل أحيانا بقوى خارقة مثل الجن والسحرة.

– الانتصار والتوريث: لا تكتمل رسالة بطل السيرة إلا بالقضاء على الخصوم والتخلص من عناصر الشر، ولا تنتهي رسالته بموته بل يخلفه أولاده.

– العزلة والموت: بعد الفراغ من هذه المهمات الطويلة وإخضاع الجميع لإرادته وانتفاء الحاجة إليه بعد تعيين الوريث والخليفة، يموت وحيدا، فمثل الميلاد والبداية الغريبة يكون موت البطل غالبا في ظروف قاسية بقتل غادر أو قاس أو عزلة فموت وحيدا[10].

تكشف الثوابت الأساسية في سيرة البطل عن تواتر نسق من الوحدات الدلالية تتطابق بنية ودلالة مع نسق الوحدات الحكائية التي تؤلف متن السيرة

أهم السير الشعبية

1– سيرة عنترة بن شداد:

تتناول بطولات عنترة بن شداد العبسي، وقد نسجت حولها المخيلة العربية على مر العصور أصنافا من المغامرات الموحية بقيم المجتمع العربي وآدابه، من وفاء وتضحية وفروسية مع غلبة الطابع البطولي الغرامي[11]. هي ككل السير الشعبية لا تنسب إلى مؤلف أو واضع واحد بل عدة مؤلفين، إلى أن شتاتها في القرن الرابع الهجري (العاشر للميلاد) يوسف بن إسماعيل المصري

استجابة لرغبة الخليفة الفاطمي (975- 996 هـ)، نسبها البعض إلى الأصمعي (ت)، وآخرون إلى أبي عبيدة (ت)، وعزا بعضهم جمعها إلى ابن الصائغ من أعلام القرن الثاني عشر الميلادي باعتباره صاحب آخر أشكالها التي وصلت إلينا، وقد عرفت صورا متقاربة منها السير الحجازية وهي الأطول، والسيرة الشامية والسيرة العراقية[12].أما في بنيتها فتخلو من الوحدة التأليفية ووحدة العقدة إذ تتجاذبها أربع وحدات: – لون عنترة/ – حبه لعبلة/ – تمجيد بطولاته/ – تمجيد الحسب والنسب بعد انتزاعهما .

وهي مثقلة بالأحداث الثانوية والطفيلية، وقائمة على أسلوب السجع خاصة، يمتزج فيها النثر بالشعر، والفصيح بالعامي، ويكثر الشعر المنحول، وتطغى التعبيرات الركيكة، أشهر شخصياتها شخصية عنترة وشخصية عبلة وبعدهما شخصية شيبوب الأخ المرشد والأمين، وقد عدها المستشرقون إلياذة العرب[13]، لما شهدوه من تعلق الناس بها وتهافتهم على حلقات رواتها.

2– سيرة بني هلال: هي تاريخ شفوي ملحمي مطول، يقوم على نصوص شعرية ونثرية، يضم خمسة ملايين مقطع شعري، كل مقطع يتكون من أربعة أشطر أو خمس، وهي لا تروي سيرة القبائل الهلالية فحسب بل سيرة عدد ضخم من القبائل العربية، لعل أهم ملمح تم التركيز عليه والاهتمام به من هذه السيرة هو التغريبة الهلالية أو الرحلة القسرية التي أجبر الهلاليون على سلوكها من المشرق إلى المغرب عقابا لهم أو معاقبة بهم لأهل المغرب الإسلامي أو كلاهما معا، وبقاؤهم هناك مع ما في الأمر من حنين إلى الموطن الأم وأهوال السفر ومشاقه وصنوف المغامرات، تسرد هذه التغريبة الحروب التي كانت للهلاليين في السودان والغرب مع اختلاف البيئات واللهجات.وهي أشبه بالملحمة فقد بلغت حوالي مليون بيت من الشعر، تتداخل فيها قصص كثيرة أشهرها قصة الأمير أبو زيد الهلالي ترتبط بالشاعر الراوي والجمهور ومكان رواية السيرة ، فمنها التي ركزت على سفر أبي زيد الهلالي إلى تونس مع أبناء أخته يونس ومرعي، ومنها التي تذكر أن عزيزة استقبلته في قصرها وأما مرعي ويحي ابنا أخته فقتلا وعاد أبو زيد الهلالي وحيدا، وتذكر رواية ثالثة أن الإخوة الثلاثة بقو أحياء في تونس ، ولذلك تختلف المدونات وتتعدد الروايات، من أهم طبعاتها:

– سيرة بني هلال الشامية الأصلية، تقع في ستة وأربعين جزء، طبعة1 القاهرة، 1948.

– سيرة بني هلال، مكتبة كرم ومطبعتها، دمشق، د ت.

– تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة، 12ج ، مطبعة محمد على صبيح وأولاده، القاهرة، د ت.

– تغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب، جاءت في ستة وعشرين جزء، مطبعة مكتبة محمد المهايني، دمشق، د ت.
(14)

3– سيرة الأميرة ذات الهمة: هي واحد من أطول السير العربية تقع في سبعين جزءا وأكثر من ستة آلاف صفحة، تغطي أحداثها حروبا متصلة لأربعة قرون من الزمن بين العرب المسلمين والتحالف الأروبي البيزنطي الذي تسميه السيرة التحالف الرومي[15].

4– سيرة سيف بن ذي يزن[16]: هو ابن آخر ملوك التباعنة "ذو اليزن" المعروف بسيرته الكبرى، لهما دور كبير في تعريب القرن الإفريقي المتاخم لليمن وباقي ربوع إفريقيا، ومن شخصياتهم المشهورة زرقاء اليمامة وما نسج حولها من روايات، وهم أسلاف أقدم حضارة وهي حضارة قحطان، تقع سيرة الملك سيف بن ذي يزن في أربعة مجلدات، طبعت طبعة شعبية في مكتبة ومطبعة المشهد الحسيني بالقاهرة.

الأستاذة الدكتورة سكينة قدور